

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

مدنية وهي ثلاث وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
 النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١ .

﴿الْمَرَّةَ﴾ اسم السورة الكريمة، وعن ابن عباس معناه: أنا الله أعلم وأرى، أي ما تعملون وتقولون ﴿تِلْكَ﴾ أي آيات السورة المسماة بـ (المر) أشير به لفخامته ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني بالكتاب القرآن العظيم المعجز الذي فاق كل كتاب ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي والذي أوحى إليك يا أيها الرسول في هذا القرآن، هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحوم حوله الشك، والتعرض لوصف الربوبية، مضافاً إلى ضميره ﷺ من الدلالة على فخامة المنزل، وتشريف المنزل إليه مما لا يخفى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ قيل هم كفار مكة، وقيل: هم اليهود والنصارى، والأولى أن يراد أكثرهم مطلقاً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحق المبين، لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ
 رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ٢ .

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي خلقهن مرتفعتات بغير دعائم والعماد ما يسند به ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي بغير عمد أصلاً حال كونكم ترونها كذلك، لا تستند على شيء، والمراد أنها قائمة بقدره الله سبحانه وتعالى، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، تعالى شأنه ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بذاته^(١)، وليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش، لأن إيجاده قبل إيجاد السماوات ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذلّلهما لما أراد منهما من مصالح العباد، كالحركة المستمرة على حدّ من السرعة، تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ يسير في المنازل والدرجات حسبما أريد منهما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، وتحقق بها مصالح العباد، كما في قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل﴾ وهو المروي عن ابن عباس، واللام تجيء بمعنى «إلى» أي كل منهما يجري كل يوم، على مدار معين من المدارات اليومية، كالسنة للشمس، والشهر للقمر، والجملة بيان لحكم تسخيرهما ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام، في العالم العلوي والسفلي، والمراد أنه سبحانه يقضي ويُقدّر ويتصرف في ذلك حسب الحكمة والمصلحة ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي ينزلها ويبينها مفصلة، والمراد بها آيات القرآن الكريم، أو الآيات الكونية ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ عند معاينتكم لها تفكرون فيها، وتحققون كمال قدرته ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ بملاقاته ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنّ من تدبرها حقّ التدبر، وتحقق كمال قدرته، أيقن أن من قدر على إبداع هذه الصنائع البديعة، قدر على الإعادة والجزاء.

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٦٩: يُمرُّ كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

ولمَّا قَرَّرَ الشَّوَاهِدَ الْعُلُويَّةَ، أَرَدَفَهَا بِذِكْرِ الدَّلَائِلِ السَّفَلِيَّةِ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ بسطها طولاً وعرضاً، لتثبت عليها الأقدام، وينقلب عليها الحيوان، وقد ثبت بالدلائل القطعية أنَّ الأرض كروية، وكونها كروية لا ينافي بسطها، لأن الكرة إذا كانت في غاية الكبر، كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح، كما قال الله تعالى: ﴿ وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا ﴾ مع أن الناس يستقرون عليها وبينون، ومن علماء المسلمين كالغزالي، والفخر الرازي وأبي السعود، وابن تيمية قالوا بكروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ فهذا يدل على استدارة الأرض، فإن التكوير هو اللفُّ على المستدير، كتكوير العمامة. ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ في الأرض ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ جبلاً ثوابت، من رسى الشيء إذا ثبت وفي الخبر «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدًا، فَخَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْجِبَالَ عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ» ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ ضمها إلى الجبال، وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها، وهو مبني على ما ذهب إليه بعض الفلاسفة، من أن الجبال لتركبها من أحجار صلبة، إذا تصاعدت إليها الأبخرة، احتبست فيها، فتقلب مياهاً، وربما خرقتها فخرجت، والذي تدل الآثار عليه أنها تنزل من السحاب، لكن لما كان نزولها عليها أكثر، كانت كثيراً ما تخرج الأنهار منها، ويكفي هذا لتشريكيهما إلى عامل واحد، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال ﷺ «سَيْحَانُ، وَجَيْحَانُ، وَالْفِرَاتُ، وَالنَّيْلُ، كُلُّ مَنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(١) وسيحان وجيحان، هما نهران في أرض الترك، وهما غير سيحون وجيحون بالواو، وفي كون هذه الأنهار من الجنة، تشبيه مياها بمياه الجنة، والإخبار بامتيازها على ما عداها، ومثله

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة رقم ٢٨٣٩ باب ما في الدنيا من أنهار الجنة.

كثير في الكلام ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّمْرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات، صنفين اثنين: كالحلو، والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والحر والبارد، وما أشبه ذلك ﴿يُعْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ﴾ أي يلبسه مكانه، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً، وإن احتمل العكس أيضاً فَإِنَّ الْأَنْسَبَ بِاللَّيْلِ، أن يكون هو الغاشي ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر من مد الأرض، وتشبيتها بالرواسي، وإجراء الأنهار، وإغشاء الليل ﴿لَايِنْتِ﴾ باهرة جلتُ حكمةُ صانعها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن التفكير فيها، يؤدي إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك، على هذا النمط الرائق، لا بدَّ له من مكوِّنٍ قادر حكيم، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنَفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ﴾ أي بقاع كثيرة مختلفة الأوصاف بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر^(١)، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادر، موقع لأفعاله على وجه دون وجه، لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية ﴿مُتَجَوِّزَاتٌ﴾ أي متلاصقات والمقصود الإخبار بتفاوت أجزاء الأرض المتلاصقة ﴿وَجَنَّتْ﴾ أي بساتين كثيرة ﴿مِّنْ أَعْنَبٍ﴾ أي من أشجار الكرم

(١) المراد من الآية الكريمة بيان قدرة الله العجيبة، فإن الأرض واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد، وتخرج الثمار مختلفة في الشكل، والقدر، والطعم، والرائحة، فمنها أبيض ومنها أسود، ومنها حلو ومنها مرّ، ومنها ما له بذر ومنها ما له نوى، ومنها الجيد ومنها الرديء، وخروج الأشجار والثمار المختلفة الأصناف والأشكال، والألوان والطعوم والروائح، مع اتحاد الأصول والأسباب، دلالة ظاهرة على عظمة الله وجلاله، وعلى وحدانيته وكامل قدرته.

﴿وَزَرَعٌ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب، ولعل تقديم ذكر الأعناب على الزرع مع كونها عماد المعاش، لما في صنعة الأعناب مما يبهر العقول، ولو لم يكن فيها إلا أنها مياه متجمدة، في ظروف رقيقة، حتى إن منها شفاف لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى ﴿وَنَخِيلٌ﴾ تأخيره لثلاث يقع فاصلة بينها وبين صفاتها، وهي قوله تعالى: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ جمع صنو، وهي نخلات أصلها واحد، وغير صنوان مختلفة الأصول، وأصل الصَّنُو المِثْلُ، ومنه قيل: «العم صنو أبيه» ﴿يُسْقَى﴾ أي ما ذكر من القِطْع، والجنات، والزرع، والنخيل ﴿بِمَاءٍ وَحَدِيدٍ﴾ لا اختلاف في طبعه، سواء كان بماء الأمطار، أو بماء الأنهار ﴿وَنَفْصِلٌ﴾ أي مع وجود أسباب التشابه بمحض قدرتنا ﴿بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ﴾ آخر منها ﴿فِي الْأَكْلِ﴾ بضم الهمزة والكاف أي فيما يؤكل وهو هنا الثمر والحب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ الذي فُصِّل من القِطْع والجنات، لآيات كثيرة، عظيمة ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعلمون بمقتضى عقولهم، فإن من عقل تلك الأحوال العجيبة، من خروج الثمار المختلفة، في تلك القِطْع المتلاصقة، مع اتحاد ما تُسقى به، بل وسائر أسباب نموها، لا يتردد في الجزم بأن لذلك صانعاً حكيماً، قادراً مدبراً لها، لا يعجزه شيء، ومن قدر على إبداع ما ذكر، قادر على إعادة ما أبداه. وقال الحسن في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، فينزل من السماء تذكرة، فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو ولا تسمع، قال الله تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(١).

﴿وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ آءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّنا لِمَنَّا لِمَنَّا خَلَقَ جَدِيدًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٢.

﴿وَإِن تَعَجَبَ﴾ يا رسول الله من شيء ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فاعجب من قولهم بعد مشاهدة الآيات، الدالة على عظيم قدرته تعالى، أي فليكن عجبك من قولهم ﴿أَيْذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ إلى آخره، فإنه الذي ينبغي أن يتعجب منه، والاستفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار ﴿أَوَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أي أنعاد خلقاً جديداً بعد الموت؟ وتكريرُ الهمزة لتأكيد الإنكار، ويجوز أن يكون الخطاب لكل من يصلح له، أي إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات، على قدرة من هذه أفعاله، فازدد تعجباً ممن ينكر قدرته تعالى على البعث؟ ﴿أُولَئِكَ﴾ المنكرون للبعث بعد أن عاينوا من آيات ربهم الكبرى، ما يرشدهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فإن إنكارهم لقدرة تعالى على البعث كفر به، وفيه دليل على أن من أنكر البعث فهو كافر بالله عز وجل ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون أي يُغْلون يوم القيامة، والأغلال جمع غُل وهو طوق من حديد يجعل في العنق ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيط ضمير الفصل، ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث، بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وذلك يدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٦)

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة وذلك أنهم استعجلوا بما هُددوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي العافية والسلامة منها أخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: هؤلاء مشركو العرب، استعجلوا بالشر قبل الخير، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(١) وإنما سموا العذاب بالسَّيِّئَةِ

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

لأنه ممّا يسوؤهم ﴿ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّتُ ﴾ المثلثة بفتح الميم وضم الثاء: نعمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع به غيره، والمثلثة العقوبة، الفاضحة، وفسرها ابن عباس بالعقوبة المستأصلة للعضو كقطع الأذن ونحوه، سميت به لما بين العقاب والمعاقب به من المماثلة، كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمة ﴿ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ بالكفر والمعاصي، والمعنى: أن ربك لذو ستر على عباده، ومغفرة لذنوبهم، لا يعجل لهم العقوبات وإن كانوا ظالمين لأنفسهم، بل يمهلهم بتأخيرها، وقال ابن عباس: معناه إنه تعالى لذو تجاوز إن تابوا وآمنوا. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لتحقيق الوعيد، وإن كانوا تحت ستره وإمهاله، والمراد بالناس الجنس، والتخصيص للكفار غير مختار.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ

قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهم المستعجلون وإنما عدل عن الإضمار ذماً لهم، ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى، حيث لم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدوها من الآيات وقالوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عناداً ومكابرة، وإلا ففي أدنى آية أنزلت عليه ﷺ غنية وعبرة لأولي الألباب، والتعبير بالمضارع ﴿ ويقول ﴾ إشارة إلى أن ذلك القول ديدنهم ﴿ إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ ﴾ مرسل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يثبت نبوتك، من جنس المعجزات، لا بما يقترحون ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي نبيّ داع إلى الحق، مرشد إليه، بآية تليق به وبزمانه، ثم عقب بما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه على الحكم والمصالح، تنبيهاً على أن تخصيص كل قوم بنبي وكل

نبي بجنس معين من الآيات، إنما هو للحكم الداعية إلى ذلك، فقال سبحانه:

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (٨).

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ أي ما تحمله كل أنثى في بطنها على أي حال هو، من الأحوال الحاضرة والمترتبة ﴿ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أي وما تُنْقِصُه وما تزداده في الجثة، كالخديج والتام، وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل وفي أكثرها، وفيما بينهما وفي الصفة من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، وغير ذلك ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ عِنْدَهُ ﴾ سبحانه ﴿ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقدر لا يجاوزه، ولا ينقص عنه كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فإنه تعالى خص كل حادث بوقت، وحال معينين، وهياً له أسباباً تقتضي ذلك.

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (٩).

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ ﴾ الغائب عن الحق ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الحاضر له، عبّر عنهما بها مبالغة، وقيل: أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود، وهذا كالدليل لما قبله من قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته بذاته، وسائر صفاته سبحانه، والمنزه عن نعوت المخلوقات.

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ (١٠).

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ ﴾ أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به ﴿ وَمَنْ جَهَرَ

بِهِ ﴿ أَظْهَرَهُ لغيره ﴾ وَمَنْ هُوَ مُسْتَحْفٍ ﴿ مبالغ في الاختفاء كأنه مختف
 ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ وطالب للزيادة ﴿ وَسَارِبًا بِالنَّهَارِ ﴾ أي ظاهر فيه، من سَرَبَ سُروباً
 من باب قعد ذهب في النهار، وقيل: إنه حقيقة في الظاهر.

﴿ لَمْ مُعَقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا
 لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ ۝ .

﴿ لَهُ ﴾ أي للإنسان لكلٍ ممن أسرَّ أو جهر ﴿ مُعَقِبَتْ ﴾ ملائكة تعتقب
 في حفظه، وكلاءته، يُقال: عقبه، إذا جاء على عقبه، كأن بعضهم يعقب
 بعضاً، بعضهم بالليل، وبعضهم بالنهار، يتعاقبون في حفظه، والتاء في
 المعقبة للمبالغة كالعلامة، لأن الملائكة غير مؤنثين، فمعنى معقبات
 جماعات كل جماعة منها معقبة ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي محيطة به من
 جوانبه، من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي يحفظونه من
 المضارِّ والأخطار بأمره تعالى، ويراقبون أحواله، وقيل «مِنْ» هنا بمعنى
 «الباء» أي بأمر الله، وفي الصحيح «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة
 بالنهار، فيجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر...»^(١) الحديث،
 وذكروا أن مع العبد، غير الملائكة الكرام الكاتبين، ملائكة حفظه،
 واستشكل أمرُ الحفظ بأن المقدر لا بدُّ أن يكون، فالحفظُ لأيِّ شيء؟
 وأجيب بأن من القضاء والقدر ما هو معلق، فيكون الحفظ منه، يقال: إنه
 جلت عظمته جعل أولئك الحفظة أسباباً للحفظ، كما جعل الجفن للعين،
 سبباً لحفظها، والعلمُ بأن أفعاله تعالى لا تخلو عن الحكيم والمصالح على
 الإجمال، مما يكفي المؤمن، ويقال نحو هذا في أمر الكرام الكاتبين، فهم
 موجودون بالنص، وقد جعلهم تعالى حفظةً، لأعمال العبد، ونحن نؤمن

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٨/٢ في مواقيت الصلاة، ومسلم رقم ٦٣٢ في المساجد.

بذلك، وإن لم نعلم ما قلمهم؟ وما مداهم؟ وما قرطاسهم؟ وكيف كتابتهم؟ وما حكمة ذلك؟ مع أن علمه تعالى كافٍ في الثواب والعقاب.

ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر إحاطة علمه بالعباد، وأن لهم معقبات، نبه على لزوم الطاعة ووبال المعصية فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة، ومن الأعمال الصالحة والملكات التي فطر الناس عليها إلى أضرارها لا مجرد تركها، واستشكل ظاهر الآية بما قرر له الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة ومنه قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ وقوله ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَىٰ يَدِهِ يَوشِكُ أَنْ يَعْصِمَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِعِقَابٍ»^(١) والحق أن المراد أن ذلك عادة الله الجارية في الأكثر، لا أنه سبحانه لا يصيب قوماً إلا بتقدم ذنب منهم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فلا ردَّ له، والسوء يجمع كلَّ ما يسوء الإنسان من مرض، وفقر، وغيرهما من أنواع البلاء ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿مِنَ الْإِلٰهِ﴾ ممن يلي أمرهم، فيدفع عنهم السوء، وفيه إيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث، واستعجال السيئة، واقتراح الآية، قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة، فاستحقوا حلول غضب الله وعذابه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾^(١٢).

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقة ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث، وتقديم الخوف لما أن المخوف عليه النفس، والمطموع فيه الرزق المترقب، وعن الحسن أنه قال خوفاً لأهل البحر، وطمعاً لأهل البر

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في أبواب تفسير القرآن، وابن ماجه في الفتن رقم ٤٠٠٥.

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ﴾ الغمام المنسحب في الجو ﴿الثَّقَالَ﴾ بالماء، وهي جمع ثقيلة كأمارة كريمة، ونسوة كرام، وُصف بها السحاب، لكونه اسم جنس في معنى الجمع.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ (١٢).

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ أي يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر، ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي يقولون سبحان الله وبحمده، وإسناده إلى الرعد لحمله لهم على ذلك، أو يسبح الرعد نفسه، على أن تسبيحه عبارة عن دلالة على تنزيهه تعالى عن الشريك، ولما فيهما من الدلالة على صفات الكمال، وعن ابن عباس «الرَّعْدُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ»^(١) والتجربة دالة على أن للتضرع والدعاء، في انعقاد السحاب، ونزول الغيث، أثراً عظيماً، وهو يأبى أن يكون ذلك للطبيعة، فليس كل ذلك إلا بإحداث محدث، حكيم قادر، يخلق ما يشاء، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق، قال: «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»^(٢) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ جمع صاعقة والمراد بها هنا النار النازلة من السحاب مع صوت شديد ﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانه ﴿بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ إصابته بها، فيهلكه بذلك ﴿وَهُمْ﴾ أي الذين كفروا وكذبوا الرسول ﷺ ﴿يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ حيث يكذبون الصادق، فيما أخبر عنه، من كمال العلم والقدرة، والتفرد بالألوهية ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٢٧٤/٥ وقال: حديث حسن غريب، ورواه أحمد والنسائي في قصة طويلة عن اليهود، وانظر تمامه في الدر المنثور ٥٠/٤.

(٢) أخرجه الترمذي وإسناده ضعيف، وانظر المنتقى المختار من الأذكار صفحة ٦٨ للإمام النووي.

المَحَالِ ﴿ أَي والحال أنه تعالى شديد القوة، والبطش والنكال، والمماكرة لأعدائه، من مَحَل بفلان إذا كايده، وعَرَّضه للهلاك، فهو مصدر كالقتال (١).

﴿ لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ .

﴿ لَمْ ﴾ أي الله تعالى ﴿ دَعُوهُ الْحَقُّ ﴾ أي الدعاء والتضرع المجاب عند وقوعه، والمراد أن إجابة ذلك له تعالى دون غيره، ويؤيده ما بعده، وعن عليّ كرم الله وجهه ﴿ دَعُوهُ الْحَقُّ ﴾ التوحيد، وعن ابن عباس ما هو أعم من ذلك وقيل دعوة الحق: الدعاء عند الخوف، فإنه لا يُدعى إلا الله سبحانه، وقيل المراد به العبادة، وحاصل المعنى: أن الذي يحق أن يُعبد هو الله تعالى دون غيره، فالوجه أن ذلك وعيد للكفرة، على مجادلتهم الرسول ﷺ بحلول نعمته بهم، وتهديدهم بإجابة دعائه ﷺ إن دعا عليهم ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من دون الله تعالى، لأن معناه متجاوزين له تعالى، وتجاوزهم إنما هو بعبادتها. ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمشركين ﴿ بِشَيْءٍ ﴾ من طلباتهم ﴿ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ ﴾ أي لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة، إلا كاستجابة الماء، لمن بسط كفيه إليه من بعيد، يطلبه ويدعوه ﴿ لِيَبْلُغَ ﴾ أي الماء بنفسه من غير أن يأخذ بشيء من إناء وغيره ﴿ فَاهُ وَمَا هُوَ ﴾ أي الماء ﴿ بِبَالِغِهِ ﴾ أي يبالغ فيه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه، وبسط يده إليه، شبه حال المشركين في دعاء آلهتهم، بحال عطشان قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى

(١) أي أنه تعالى شديد المكر والكيد لأعدائه، يهلكهم من حيث لا يعلمون، فالمحال بمعنى المماحلة أي المكايدة.

يديه^(١) ﴿ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ في ضياع وخسار وباطل، والمراد بهذا الدعاء دعاء آلهتهم لكشف الضر عنهم.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ
وَالْأَصَالِ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ يَسْجُدُ ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والثقلين ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ فإن خضوع الكل لعظمة الله عز وجل، لإحداث ما أَرَادَهُ فيهم، من أحكام التكوين والإعدام، شأؤوا أو أبوا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ ﴾ ﴿ وَظِلَالُهُمْ ﴾ أي تنقاد له تعالى ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ والمراد بهما الدوام، وتخصيص الوقتين، لأن الامتداد والتقلص أظهر فيهما، والغدو جمع غَدَاة وهي الضحى، والأصال: جمع أصيل، وهو ما بين العصر والمغرب، وقيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حالة الاضطراب يخضون السجود به تعالى، قال سبحانه ﴿ إِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾^(٢) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً تسجد لله تعالى، كما خلق ذلك للجبال، حتى اشتغلت بالتسبيح، وظهر فيه آثار التجلي، واختار المحققون أن مساق الآية، إنما هو أن العالم كله خاضع لما أَرَادَ سبحانه منه، مقصور على مشيئته تعالى، ويدل على هذا تشريك الظلال في السجود، وهي ليست أشخاصاً يُتصور منها السجود بالهيئة فهو تمثيلٌ للخضوع والإذعان.

(١) مثل في منتهى الإبداع والإعجاز، مثل تعالى لحال هؤلاء المشركين، في عبادتهم للأصنام، ودعائهم لها، بحال إنسان اشتد به العطش، فهام على وجهه يبحث عن الماء، فلما رأى الماء أخذ يبسط كفيه إليه يدعوه ليذهب غلته، والماء جماد لا يحس ولا يشعر بعطشه، فكذلك حال هؤلاء المشركين مع الأصنام، ويا له من تمثيل بدیع!! .

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٥ .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ
وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من خالقهما ومتولي أمرهما؟ أي قل
يا رسول الله لهؤلاء الكفار: من ربُّ هذه الأجرام العظيمة، العلوية
والسفلية؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أجب عنهم بذلك، إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه
البيِّن الذي لا يمكن المراء فيه، ويجوز أن يكون ذلك تلقيناً للجواب لبيِّن
لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه ﴿ قُلْ ﴾ إلزاماً لهم ﴿ أَفَاتَّخَذْتُمْ ﴾ أي
أعلمتم أن ربهما هو الله سبحانه فاتخذتم عقبيه ﴿ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ عاجزين
﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ﴾ وهي أعز عليهم منكم ﴿ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ يستجلبونه أو
يدفعونه عنها، فضلاً عن القدرة على جلب النفع للغير، ودفع الضر عنه،
وهذا دليل ثانٍ على ضلالهم، وفساد رأيهم في اتخاذهم الأولياء، رجاء أن
ينفعوهم ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله تصويراً لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس
﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أي هل يستوي المشرك الضال الذي يشبه
الأعمى، والمؤمن الموحد الذي هو البصير؟ والمراد لا يستوي المؤمن
والكافر كما لا يستوي الأعمى والبصير^(١) ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾؟
الظلمات هي عبارة عن الكفر والضلال، والنور هو عبارة عن الإيمان

(١) هذا تمثيل لضلال المشركين في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافر، وبالبصير
المؤمن، كما أن المراد بالظلمات الكفر والضلال، وبالنور الهدى والإيمان،
والمعنى: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء
الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضح
وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور
الفارق بين النور والظلام، والله أعلم بمراده.

والتوحيد، وجمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ بل جعلوا، الهمزة للإنكار ﴿ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ سبحانه ﴿ فَتَشَبَّهَ الْخَالِقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي تشابه عليهم خلق الله وخلقهم، والمعنى: إنهم ما اتخذوا الله شركاء قادرين مثله جلّ وعلا حتى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا هؤلاء الشركاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة، ولكنهم اتخذوا شركاء، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق، وليس لهم شبهة تصلح أن تكون منشأً لغلظهم، وإذا كان الأمر كذلك، كان فعلهم محض السّفه والجهل ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إليه ﴿ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لا خالق سواه ﴿ وَهُوَ الْوَّاحِدُ ﴾ المتوحد بالألوهية ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الغالب على كل شيء، فكيف يُتوهم أن يكون له شريك؟ وهذا كالنتيجة لما قبله.

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُۥ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذٰهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ .

﴿ أَنْزَلَ ﴾ الواحد القهار ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من جهتها ﴿ مَاءً ﴾ كثيراً وهو ماء المطر ﴿ فَسَالَتْ ﴾ بذلك ﴿ أَوْدِيَهُۥ ﴾ أي أنهار، جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فأتسع فيه، واستعمل للماء الجاري، وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكبر ﴿ فَاحْتَمَلَ ﴾ أي حمل، وجاء «افتعل» بمعنى المجرد، كاقتر وقدر، أي رفع وحمل ﴿ السَّيْلُ ﴾ الماء الجاري في تلك الأودية حمل معه بسبب السيل ﴿ زَبَدًا ﴾ أي غثاءً منتفخاً يشبه الرغوة، والزبد: هو الغثاء الذي يطرحه الوادي إذا تدفق ماؤه ﴿ رَابِيًا ﴾ أي عالياً منتفخاً فوق الماء، يضمحل عمّا قريب، فالحقُّ الثابت هو الماء، والزبد الزائل هو الباطل، وذلك شأن الزبد، وهنا

تمَّ المثل، ثم ابتداءً بمثل آخر فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس ﴿فِي النَّارِ﴾ لإذابته نحو الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس ﴿أَبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب زينة فإن أكثر الزين من الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَّعٍ﴾ وهو ما يتمتع ويتنفع به كالأواني، وآلات الحرب، والحرث، التي تستخرج من النحاس والحديد والرصاص، تذاب فيتخذ منها الأواني وآلات الحروب والحرث ﴿زَبْدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي ومنه ينشأ زَبْدٌ مثل زَبْدِ الماء، يعلو عليه إذا أُذِيب وهو الحَبْثُ، يطفو ولكنه بعدُ خَبَثٌ يذهب، ويبقى المعدن الصافي في نقاء، ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رايياً منتفخاً، لا يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا بقاء، والحق يظل هادئاً ساكناً، ولكنه الباقي في الأرض كالماء الذي فيه حياة، والمعدن الصافي الذي فيه النفع. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع، المشتمل على نكت رائعة ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي يضرب مثل الحق، ومثل الباطل، فمثلُ الحق في ثباته واستقراره، كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض، فينبت به أنواع الخضار والثمار، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله، كمثل الزبد والغشاء ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ من كل منهما من السيل وما يوقدون عليه ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ مرمياً به، يقذف به السيل، فيتفرق ويتمزق ويذهب في أطراف الوديان ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ منهما كالماء الصافي، والفلز الخالص من الخبث ﴿فَيَمَكُّهُ﴾ أي يبقى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فينتفع منه الناس، أمَّا الماء فيسلك بعضه في عروق الأرض، إلى العيون والآبار، وأما الفلزات فيصاغ من بعضه أنواع الحلبي، ويتخذ من بعضه آلات وأدوات ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التمثيل العجيب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ في كل باب، إظهاراً لكمال اللطف، والعناية في الإرشاد، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل، وتأکید لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾.

وبعد ما بيَّن الله شأن حال كلِّ منهما أكمل بيان، شرح مصير كل منهما مآلاً، تكميلاً للدعوة، وترغيباً وترهيباً فقال سبحانه:

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلَّذِينَ تَابُوا وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أي للمؤمنين الصادقين، الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة ودعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التي من جملتها ضرب الأمثال ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة، قاله قتادة والجمهور، وقال مجاهد: لهم الحياة الحسنى، أي الطيبة التي لا يشوبها كدر أصلاً ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ سبحانه، وعاندوا الحق الجلي ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من أصناف الأموال ﴿ جَمِيعًا ﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ في أقطارها ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ أي لبذلوا فداءً لأنفسهم جميع ما في الأرض، ليتخلصوا به من العذاب، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أي يحاسبون بذنوبهم كلها، فلا تقبل حسناتهم، ولا تُغفر سيئاتهم ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أي مرجعهم ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ نار جهنم يخلدون فيها ﴿ وَيَسَّ لِلَّذِينَ تَابُوا وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أي المستقر، والمخصوص بالذم محذوف أي بسئت جهنم مهادهم وفراشهم.

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۗ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِكَ ﴾

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد وهو النور الوهاج، والإبريز الخالص في المنفعة والجدوى ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ الذي لا حق وراءه فيستجيب له، ويؤمن به، ويعمل بما فيه ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾؟ أي أعمى القلب، لا يشاهد أنوار الدين، ولا يدرك محاسنه، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل، يتخبط في مهاوي الضلال؟ وأريد بلفظ العمى زيادة تقبيح حاله، فعبر عنه بالأعمى، فالعالم بالشيء كالبصير، والجاهل به كالأعمى، وليس أحدهما كالآخر، إذ الأعمى إذا أخذ يمشي بغير قائد، إما يقع في

مهلكة، وإما يفسد ما كان على طريقه، أما البصير فيكون آمناً من الهلاك والإهلاك ﴿إِنَّمَا يَذَكَّرُ﴾ أي يتعظ بما ذكر من الآيات ﴿أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ أي ذوو العقول الخالصة، المبرأة من معارضة الوهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي بما عقده على أنفسهم، من الاعتراف بربوبيته تعالى، والعمل بشريعته المطهرة، ويدخل فيه الإتيان بجميع المأمورات، والانتهاز عن كل المنهيات ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من المواثيق، وفيه تأكيد للاستمرار من صيغة المستقبل.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ الظاهر العموم في كل ما أمر الله تعالى به، في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ من صلة الرحم، وموالة المؤمنين، والإيمان بجميع الأنبياء، من غير تفريق بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس، من النصح، والإحسان إليهم، ونصرتهم، والندب عنهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السلام، وعبادة مرضاهم ونحوها، حتى تدخل فيه حقوق الحيوانات ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيده سبحانه، والظاهر أن المراد مطلقاً أي يخافون ربهم إجلالاً وتعظيماً، فلا ينتهكون محارمه ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، وفيه دلالة على فظاعته وشدته، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، للاهتمام.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على كل ما تكرهه النفس، من الأفعال، ومن المصائب المالية والبدنية ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه خاصة، لا رياء، أو سمعة والإنسان يصبر إما ليقال ما أكمل صبره، وإما لثلا يعاب بالجزع، وإما لثلا تحصل شماتة الأعداء، فهذه الوجوه ليست لابتغاء وجه الله تعالى، وأما إذا صبر لعلمه بأنه قسمة القَسَام، ورضي بذلك، يصدق عليه أنه صبر ابتغاء وجه ربه، كما أن العاشق يرضى بضرب المعشوق ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، وداموا عليها، بإتمام أركانها، وشرائطها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي بعضها الذي يجب عليهم إنفاقه، وهو الزكاة ﴿سِرًّا﴾ أي ينفقها في الخفاء خشية الرياء، فإن لم يُتَّهَم بترك الزكاة، فالأولى أداؤه سرّاً، وإلا فعلائية، أو ينفق سرّاً لمن تمنعه المروءة من أخذه ظاهراً ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن لم يكن كما ذكر ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يجازون السيئة بالإحسان، أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها وفي الحديث الشريف «أتبع السيئة الحسنة تمحها» ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة، وليس المراد بهم أناساً بأعيانهم ﴿لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة الدنيا المحمودة وما ينبغي أن يكون مآل أهلها، وهي الجنة دار السرور، من غير خوف بدخول النار.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣)

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبى الدار ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يقيمون فيها ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ جمع أبوي كل واحد منهم، فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي زوجاتهم ونسائهم المؤمنات، ليأنسوا بلقاء الأهل والأولاد، ويتم لهم السرور ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي أولادهم وأحفادهم، والمعنى: أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم، وإن لم يبلغ مبلغاً من فضلهم، تبعاً لهم، تعظيماً لشأنهم، وتتميماً لسرورهم، وفي التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة، لمن يتمسك بمجرد جبل الأنساب، وإنما يلحق الله

الذرية والأولاد بالآباء، لأنه من أعظم موجبات سرورهم، أن يجتمعوا فيتذكروا أحوالهم في الدنيا، ثم يشكرون الله على الخلاص منها، والفوز بالجنة قال الله تعالى في أهل الجنة: ﴿يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي ربي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(١) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي من أبواب المنازل، يدخلون لإتحافهم بأنواع التحف قائلين:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٢)

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة لهم بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم، وتخصيصُ الصبر بما ذُكر من الصلاة السابقة، لما أن له دخلاً في كل منها، ومزية زائدة من حيث ملاك الأمر في كل منها، وأن شيئاً منها لا يُعتدُّ به إلا أن يكون لابتغاء وجه الرب تعالى ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي فنعمة عاقبة الدنيا: الجنة، وقد كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٢).

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٣)

﴿وَالَّذِينَ﴾ أريد بهم من يقابل الأولين، ويخالفهم في الاتصاف بنقائص صفاتهم ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقبول، قيل الآية نزلت في أهل الكتاب ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء الأمرين بالتوحيد، ومن حقوق الأرحام، وموالة المؤمنين وغير ذلك، مما لا يراعون حقوقه، وإنما لم

(١) سورة يس، آية: ٢٧.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن محمد بن إبراهيم ١٣٩/٣.

يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحاً لدلالة النقض والقطع على ذلك ﴿ وَيَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالظلم وتهيج الفتن، وبالكفر والعصيان ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ اللَّعْنَةُ ﴾ الإبعاد من رحمة الله ﴿ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أي سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ أي يوسعه ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يضيّقه، والمراد بالرزق الدنيوي، لا ما يعم الأخروي يقال: قدر الله الرزق يقدره من باب ضرب ضيقه على ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، من غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك، فربما يبسط للكافر ابتلاءً واستدرجاً، وربما يضيّقه على المؤمن، زيادة على أجره فلا يُقال: كيف يكون الكافر مع ما عليه من الضلال في سعة من الرزق؟ فبيّن سبحانه أن سعة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضيق رزق بعض المؤمنين ليس للإهانة لهم، بل لحكم إلهية يعلمها سبحانه ﴿ وَفَرِحُوا ﴾ أهل مكة فرح أشد وبطر، لا فرح سرور بفضل الله تعالى ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بما بسط لهم من نعيمها ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بما بسط لهم فيها من النعم ﴿ فِي الْآخِرَةِ ﴾ في جنب نعيم الآخرة ﴿ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ إلا شيء تافه حقير يتمتع به، كعجالة الراكب وزاد الراعي، يعني شيء قليل النفع، وسريع الفساد، وذلك لا يوجب الفرح^(١). عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله: لو اتخذنا لك وطاءً - أي فراشاً ليناً - فقال:

(١) المتاع: كل ما يتمتع به الإنسان ثم يضمحل ويفنى، والمراد أن نعيم الدنيا وشهواتها وملاذها شيء قليل ذاهب، ومتاع حقير بالنسبة لنعيم الآخرة.

«ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا، إلا كراكب استظلَّ تحت شجرة، ثم راح وتركها»^(١).

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي هلاً أنزل على محمد آية أي معجزة، كمعجزة العصا لموسى، وإحياء الموتى ليعسى؟ ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إضلاله باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، وهو كلام جارٍ مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة، التي أوتيتها ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن آية، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها، كان ذلك موضعاً للتعجب، فما أعظم عنادهم، وما أشد كفرهم!! والله تعالى يخلق فيمن يشاء الضلال، لسوء استعداده، كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد، والغلو في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءتته كل آية ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ ﴾ أي إلى جانبه العلي الكبير، هداية موصلة إليه ﴿ مَنْ أَنْابَ ﴾ أي أقبل إلى الحق، ورجع عن العناد وأناب إليه سبحانه، والآية صريحة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة في نسبة الخير والشر إليه عزَّ وجل.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بدل ممن أناب أي هم الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسوله، وأيقنوا بالآخرة والحساب والجزاء ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تأنس وتسكن ﴿ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

(١) الحديث أخرجه الترمذي وصحَّحه رقم ٢٣٧٨.

ولا من خلفه، وإطلاق الذكر على ذلك شائع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وسبب اطمئنان قلبهم بذلك، علمهم أن لا آية أعظم منه، ولذلك لا يقترحون الآيات كغيرهم، والعدول إلى صيغة المضارع، لإفادة دوام الاطمئنان وتجديده، بحسب تجدد المنزل من الذكر ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ﴾ وحده ﴿تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي تأنس وتسكن قلوبهم بذكره، دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنياويات، وفيه إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب معتبرة، حيث لم يطمئنوا بذكر الله، فإن قيل: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوجلُّ ضد الاطمئنان!! قلنا: المراد ههنا حصول الطمأنينة لهم، لكونه حقاً وارداً من عند الله سبحانه، والوجلُّ خوفُ الجلالة، والعظمة والهيبة، أي وجلت قلوبهم من هيئته عز شأنه، وذلك دليل الإيمان، فلا تعارض بين الآيات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أمّا المؤمنون الصادقون، الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أحسنوا في الدنيا، فيقال لهم ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ عن ابن عباس معناه: فرح، وقرّة عين لهم، وعن الضحاك: غبطة لهم، وعن قتادة حسنى لهم، ويرجع ذلك إلى معنى العيش الطيب لهم ﴿وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ﴾ المرجع والمقرُّ وهي الجنة، وهذا وعدٌ من الله تعالى لهم ترغيباً لطاعته.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتَلَّوْا عَلَيْهَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾.

﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل إرسال الرسل قبلك ﴿ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ ﴾ شبه إرساله ﷺ بإرسال من قبله، وإن لم يجر لهم ذكر، للدلالة قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت ﴿ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ كثيرة قد أرسل إليهم رسل، فليس بدع إرسالك إليها ﴿ لِيَتْلُوا ﴾ لتقرأ ﴿ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الكتاب الذي أوحيناه إليك ﴿ وَهُمْ ﴾ والحال أنهم ﴿ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ أي يكفرون بالرحمن رب العزة والجلال، الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية، نزلت في مشركي أهل مكة، حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، قالوا وما الرحمن؟ وأوثر هذا الاسم الدال على المبالغة في الرحمة، للإشارة إلى أن الإرسال ناشىء منها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله: إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿ هُوَ رَبِّي ﴾ أي خالقي ومبلغي إلى مراتب الكمال ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري لا على أحد سواه ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ أي توبتي ورجوعي ومرجعكم.

﴿ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سُرَّتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتِيُّ ﴾ بل لله الأمر جميعاً فلم يأتس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ .

﴿ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا ﴾ أي قرآناً ما، وكتاباً من الكتب السماوية ﴿ سُرَّتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ أي نُقلت من أماكنها وزعزعت من رواسيها، وهذا لبيان عظم شأن القرآن العظيم وتأثيره على النفوس ﴿ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴾ أي شقت وجعلت أنهاراً وعيوناً أو جعلت قطعاً متصدعة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ﴿ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتِيُّ ﴾ أي كلم أحد به الموتى، بأن أحياهم بقراءته، فتكلم معهم،

وجواب الشرط محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الهداية والتذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف، وقال الزجاج: تقديره لما آمنوا، لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد، فلو أنّ قرآنًا فُعلت به هذه الأفاعيل العجيبة، لكان هذا القرآن المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين^(١) ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي له جلٌّ وعلا الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان، وجوداً وهدماً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو إضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفي أي لو أن قرآنًا جُعل به ما ذُكر، لكان ذلك هذا القرآن العظيم، ولكن لم يفعل سبحانه بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده، روي أن بعض المؤمنين قالوا يا رسول الله: أجب هؤلاء الكفار إلى ما اقترحوه من الآيات، فعى أن يؤمنوا فقل: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَّ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أفلم يقنط المؤمنون، عن إيمان هؤلاء الكافرين، بعدما رأوا كثرة عنادهم، وبعدهما شاهدوا الآيات؟^(٢) ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ألم يعلموا أن الله لو شاء هدايتهم لهداهم، وأنه سبحانه لم يشأ ذلك ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كفار مكة ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من الكفر وسوء الأعمال، ﴿قَارِعَةً﴾ أي داهية تفرعهم وتقلعهم، بما يحلُّ بهم في كل وقت، من صنوف البلايا والمصائب، في نفوسهم وأولادهم، والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، من القرع وأصله ضرب شيء بشيء بقوة، والمراد بها هنا ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب، من القتل، والأسر، والنهب ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ تلك

(١) الغرض تعظيم شأن القرآن، والرد على المشركين الذين كابروا في كون القرآن آية، واقترحوا آية غيرها، فنبههم تعالى أنه آية الآيات، ومعجزة المعجزات.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْسَ﴾ أفلم يعلم ويتبين، وهي لغة هوازن وهذا التفسير منقول عن بعض السلف، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي، ما دام يمكن أن يفهمها على الوجه المتبادر، فمعنى أفلم يئس أي أفلم يقنط المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة؟ فهو أظهر وأشهر.

القارعة ﴿قَرِيْبًا﴾ مكاناً قريباً ﴿مِنْ دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها، ويتطير شررها عليهم، وشبه القارعة بالعدو المتوجه إليهم فأسند إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بموتهم أو هلاكهم أو بمجيء القيامة، أو فتح مكة، فإن كلاً منها وعد محتوم، وفيه دلالة على ما يصيبهم عند ذلك من العذاب، ثم حقق ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ الميعاد بمعنى الوعد، لامتناع الكذب في كلامه تعالى، أي لا يخلف وعده بنصرة أنبيائه.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا تُمْ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ (٣٢).

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي﴾ كثيرة خلت ﴿مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين، والإملاء: أن يترك الشيء في دعة وأمن، كما يملئ للبهيمة في المرعى، والمعنى: إن ذلك ليس مختصاً بك، بل هو أمر مطرد، قد فعل ذلك برسول كثيرة كائنة من قبلك، فأمهلت الذين كفروا ما فعلوه بهم مدة من الزمن ﴿تُمْ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ أي ثم أخذتهم بالعذاب فكيف عقابي لهم؟ أي سأنتقم من هؤلاء أيضاً، كما انتقمت من أولئك المتقدمين.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَابِئُ عَنِّي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَهْرِ أَمِّ بَطْنِهِ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٣٣).

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَابِئُ﴾ رقيب عليها ومهيمن ﴿عَنِّي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت، كمن ليس كذلك، بل هو عاجز عن نفسه وهي الأصنام، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾

كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه، وجعلوا له شركاء لا شريكاً واحداً ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبيكت إثر تبيكت لهم، أي سمّوهم من هم؟ وما هي أسماؤهم؟ وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة، ويستأهلون الشركة؟ وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر، يعني أنه أحسن من أن يُسمّى ويذكر ﴿أَمْ تَلْبَسُونَهُ﴾ أي بل أتخبرونه تعالى ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي شركاء مستحقين للعبادة، لا يعلمهم سبحانه وتعالى، والمراد نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية، لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمها وهو الذي لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهي لا حقيقة لها أصلاً، وتخصيص الأرض بالذكر، لأن المشركين إنما زعموا أنه سبحانه له شركاء فيها ﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء، بظاهر من القول، من غير أن يكون له حقيقة، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب، ينادي على نفسه بالإعجاز، فتبارك الله رب العالمين!! ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إضراب عن الاحتجاج عليهم، كأنه قيل: دع ما ذكر من الدليل، فإنه لا فائدة فيه، لأنه زين لهم كفرهم ﴿وَمَكْرَهُمْ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم وتمويههم الباطيل ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الحق بختم الله تعالى على قلوبهم ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلال لسوء اختياره ﴿فَأَلِّمُنْ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدى ويوصله إلى ما فيه نجاته.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

وَاقٍ ﴿٣١﴾ .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ شاق ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل، والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب، فإنها إنما تصيبهم عقوبة من الله على كفرهم ﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عذابه سبحانه ﴿مِنْ وَاقٍ﴾ من حافظ يحفظهم من ذلك.

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ ﴿٣٥﴾ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ أي صفاتها العجيبة في الغرابة كالمثل ﴿ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار الجنة ﴿ أُكْلُهَا ﴾ ثمرها ﴿ دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع أبداً ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أيضاً دائم لا ينسخ كما تنسخ ظلال الدنيا بالشمس ﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة الموصوفة بما ذكر ﴿ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الكفر والمعاصي أي مآلهم ومنتهاى أمرهم ﴿ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ لا غير، وفيه ما لا يخفى من إطماع المتقين، وإقناط الكافرين.

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَوَابٍ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وأصحابه، ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً، أو عامتهم، فإنهم يفرحون بما يوافق كتبهم، وعن الحسن وقتادة: المراد بالكتاب «القرآن» وأهل القرآن ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ إذ هو الموعد في التوراة والإنجيل ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي ومن أحزاب أهل الكتاب وهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف، والسيد، والعاقب وأتباعهم، والأحزاب جمع حزب: الطائفة المتحزبة، أي المجتمع لأمر ما كالحرب ونحوه ﴿ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أي ينكر بعض القرآن عناداً، مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما عندهم ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله إزاماً لهم، ورداً لإنكارهم، صادعاً بالحق ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أي قل لهم: إنما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده، ولا سبيل لكم إلى إنكاره، لإطباق جميع الأنبياء والكتب الإلهية على ذلك كقوله تعالى: ﴿ يا أهل

الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً^(١) ﴿١﴾ فما لكم تشركون به سبحانه عزيزاً والمسيح؟ ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله تعالى، وإلى ما أمرت به من التوحيد ﴿أَدْعُوا﴾ الناس، لا إلى غيره، ولا إلى شيء آخر ﴿وَالَيْهِ﴾ إلى الله تعالى وحده ﴿مَتَابٍ﴾ أي مرجعي للجزاء، وقوله: ﴿أمرت أن أعبد الله﴾ يدل على أن العبادة غاية التعظيم وقوله: ﴿ولا أشرك به﴾ يدل على نفي الإشراك، وقوله: ﴿إليه أدعوا﴾ إشارة إلى نبوته ﷺ وقوله: ﴿وإليه مآب﴾ إشارة إلى الحشر والنشر.

ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع، ببيان الحكمة في ذلك فقال سبحانه:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع حسبما تقتضيه الحكمة ﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي حاكماً يحكم في القضايا والوقائع بالحق، والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم، لتوضيح وجوب مراعاته ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجماً بلسان العرب، إذ بذلك يسهل فهمه، وإدراك إعجازه بالنسبة للعرب ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم، وترك الدعوة إلى الإسلام ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ العظيم الشأن، الفائض عليك من ذلك الحكم العربي ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ من جنابه العزيز، والالتفات وإيراد الاسم الجليل، لتربية المهابة في النفس ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك، وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من مصارع السوء، وأمثال هاتيك القوارع والزواجر، إنما هي لقطع أطماع

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٤ .

الكفرة، وتهيج المؤمنين على الثبات على الدين، لا للنبي ﷺ فإنه بمكان لا يحتاج إلى باعث أو مهيج، ولذا قيل: الخطابُ لغيره.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴾ كثيرة ﴿ مِّن قَبْلِكَ ﴾ بشراً مثلك ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ نساء وأولاداً، كما جعلناها لك، روي أن اليهود عيّرت رسول الله ﷺ، وقالوا لا نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فنزلت رداً عليهم، حيث تضمنت أن التزوج لا ينافي النبوة، وأن الجمع قد وقع في رسل كثيرين، وفي تكثير نسائه ﷺ فوائد جمّة، ولو لم يكن فيه سوى الوقوف على استواء سره وعلنه لكفى، لأن النساء من شأنهن أن لا يحفظن سراً كيف ما كان، وروي أنهم طعنوا في نبوته ﷺ بعدم الإتيان بما يقترحونه من الآيات فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي ما صح وما استقام ولم يكن في وسع رسول من الرسل، الذين من قبلك أن يأتي بآية مما اقترح عليه إلا بتيسير الله عليه، ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ أي لكل مدة ووقت من الأوقات ﴿ كِتَابٌ ﴾ حكم معين يكتب على العباد، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم، في المبدأ والمعاد، ومن قضية ذلك أن تختلف باختلاف أحوال الأمم، كاختلاف العلاج حسب اختلاف المرضى.

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ أي ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام، لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ بدله ما فيه المصلحة، أو يبقيه على حاله غير منسوخ، أو يمحو سيئات التائب، ويثبت مكانه الحسنه،

قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وعن ابن عباس ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ من أمور العباد، إلا السعادة، والشقاوة، والآجال، فإنها لا محو فيها^(١) وقيل: هو عام في الرزق، والأجل، والسعادة، والشقاوة، ونُسب إلى جماعة من الصحابة والتابعين، كانوا يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء، وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت ويقول: «اللهم إن كنت كتبت عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه، واجعله سعادة ومغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب»^(٢) وقيل: ما من شيء إلا ويمكن تبديله حتى القضاء الأزلي، واستدل لذلك بأمر منها أنه قد صحَّ من دعائه ﷺ في القنوت «وقني شرَّ ما قضيت» وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأزلي، ولو لم يمكن تغييره، ما صحَّ طلبُ الحفظ منه، ومنها ما صحَّ في حديث التراويح قال ﷺ: «خشيت أن تفرض عليكم» فإن سبق القضاء بأنها ستفرض، لا معنى لهذه الخشية فتفرض، وإن سبق القضاء أن لا تفرض فمحال أن تُفرض^(٣) ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

(١) رواه عنه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره ٥٣٨/٢.

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٣٧/٤.

(٣) قال ابن عطية: والذي يتلخص من الآية، أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل، لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي كتبت في أم الكتاب - يعني اللوح المحفوظ - وسبق بها القضاء، وأما الأشياء التي أخبر الله أنه يُبدل فيها وينقل، كمغفرة الذنوب بعد تقررها، وكنسخ آية بعد تلاوتها، ففيها يقع المحو والتثبيت، فيما يقينه الحفظ ونحو ذلك، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر، فقد محا الله ما محا، وأثبت ما أثبت. اهـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٨٢/٨.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

كِتَابٍ^(١) وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٢) وجمهور العلماء على أن هذه الآيات كلها في معنى واحد، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي»^(٣) وروى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: «وكتب في الذكر كل شيء» وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»^(٤) وروى أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت مرفوعاً «أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتب فجرى بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»^(٥) ومذهب السلف أن تؤمن بالقلم الإلهي، واللوح المحفوظ، وما كتب القلم في اللوح من مقادير الخلق، ونحو ما ورد، من غير أن نحكم بأرائنا في صفة شيء، وتفسير أم الكتاب بعلم الله تعالى، ممَّا رواه عبد الرزاق وابن جرير عن كعب.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٦).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ المراد بعض الذي وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ﴿أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ لا غير، أي فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة، لا تحقيق ما بلغته من الوعيد ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي علينا حسابهم وجزاؤهم، فلا تهتم بما وراء ذلك، فنحن نكفيك، ونتمم ما وعدناك من الظفر، ولا يُضجرك تأخره، فإن ذلك لما

(١) سورة طه، آية: ٥٢.

(٢) سورة يس، آية: ١٢.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٤٠٤/١٣ ومسلم رقم ٢٧٥١ في التوبة.

(٤) أخرجه مسلم في القدر رقم ٢٦٥٣ والترمذي رقم ٢١٥٧ في القدر أيضاً.

(٥) أخرجه الترمذي في القدر رقم ٢١٥٦ وأحمد في المسند ٣١٧/٥.

نعلم من المصالح الخفية، ثم إنه سبحانه طَيَّب نفسه ﷺ بطلوع تباشير الظفر، فقال:

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤١).

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا ﴾ استفهام إنكاري، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أنكروا نزول ما وعدناهم ولم يروا ﴿ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أرض الكفرة ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل، والأسر، والإجلاء، فانتقاص أرضهم وقواهم وازدياد قوة المسلمين، من أقوى العلامة على إنجاز الوعد، نظيره قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) ؟ وأخرج الحاكم عن ابن عباس وصححه أن انتقاص الأرض موتُ أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعزة والإقبال، وعلى الكفر بالذلة والإدبار، حسبما يشاهده ذوو الأبصار ﴿ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أي لا رادَّ له، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فمما قيل يحاسبهم ويجازيهم بأفانين العذاب في الآخرة، وعن ابن عباس معناه سريع الانتقام.

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴾ (٤٢).

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ﴾ الكفار ﴿ الَّذِينَ ﴾ خلوا ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم، وبالمؤمنين منهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ بأنه لا عبرة بمكرهم، ولا تأثير، ولم يصرح سبحانه لدلالة القصر في قوله تعالى:

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٤.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ﴾ أي جنس المكر ﴿جَمِيعًا﴾ أي لا وجود لمكرهم أصلاً، إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير، وحيث كان جميع ما يأتون بعلمه وقدرته سبحانه، وأعمالهم مجرد الكسب حسبما بينه سبحانه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومن قضية عصمة أوليائه، وعقاب الماكرين بهم، ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة إلى مكر الله بهم عين ولا تأثير، على معنى أن ذلك ليس مكرراً بالأنبياء، بل هو بعينه مكرٌّ من الله عزَّ وجلَّ بهم، وهم لا يشعرون، حيث لا يحقق المكر السيء إلا بأهله ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ المراد الجنسُ أي جميع الكفار، الذين كذبوا برسالة محمد ﷺ حين تُوفِّي كلُّ نفس جزاء ما كسبته ﴿لِمَنْ عُقِبَ الدَّارِ﴾ أي العاقبة الحميدة من الحزبين، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يقول كفار مكة لرسول الله ﷺ لست يا محمد مرسلًا من عند الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعة، والبيئات الساطعة، ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أي علم القرآن، وما عليه من النظم المعجز، وإخباره عن الغيوب، وقيل: المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، فالمراد بمن عنده علمها الذين أسلموا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه، أخرجهم ابن جرير عن ابن عباس، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد»
